الأميرةُ والأَحْمَق

محمد مسعود جاد – مصر

كَانَ الضَّوْءُ يَدُقُّ عَلَى وَجْهِي، وسَوْطُ السَّجَّانِ يَحْفُرُ تَذْكَارَهُ فِي جَسَدِي المُنْهَكِ المَصْلُوبِ عَلَى حَائِطِ البُكَاءِ، فَأَفَقْتُ مِنْ غَفْوَةِ المَجْهُولِ عَلَى أَصَابِعِ الجَحِيمِ، أَتَذَكَّرُ مِنْ أَيْنَ جِئْتُ؟ وكَيْفَ انْتَهَيْتُ؟، كَمَنْ فَرَّ مِنْ أَنْيَابِ المَوْجِ إِلَى جَزِيرَةٍ وأَخَذَ يَلْهَثُ فَوْقَ الشَّاطِئِ فَرَآهَا تَعُجُّ بِالوُحُوشِ، وحِينَ دَاعَبَ عِطْرٌ جَوَانِحِي الَّتِي كَادَتْ تَنْشَقُّ مِنْ رَكْضِ الأَلَمِ فَوْقَهَا، تَنَاسَيْتُ أَوْجَاعِي كَأَنَّمَا رُوحِي قَدْ غَادَرَتْنِي تَتَسَحَّبُ خَلْفَ تِلْكَ الرَّائِحَةِ المُشَبَّعَةِ بِدَمْعَةِ العَذْرَاءِ!

صَوْتٌ نَاعِمٌ يَخْنِقُهُ الدَّمْعُ وآخَرُ مِثْلَ البُرْكَانِ يَتَصَبَّبُ غَضَبًا، فَإِذَا بِصِيَاحِ السَّجَّانِ يَخْتَرِقُ جَمِيعَ مُنْعَطَفَاتِ القَلْبِ يَسَأَلُنِي: "كَيْفَ تَجَرَّأْتَ عَلَى الأَمِيرَةِ؟" حِينَهَا تَشَابَكَتْ خُطُوطُ الذَّاكِرَةِ لِتُنْتِجَ لَوْحَةَ الهُوِيَّةِ الَّتِي تَلَاشَتْ فِي بِئْرِ الخَوْفِ، تَذَكَّرْتُ إِذْ كَانَتْ كَفُّ الطَّرِيقِ تَقْذِفُنِي مِنْ حُفْرَةٍ تَعِيسَةٍ إِلَى حُفْرَةٍ بَائِسَةٍ، كَأَنَّ ضَبَابَ اليَأْسِ يُحَاصِرُنِي كَيْ يَجْتَاحَ مَا تَبَقَّى لَدَيَّ مِنْ حُصُونِ الأَمَلِ!

فشَدَّتْنِي أَنَامِلُ نَسِيمٍ مُتَزَاحِمَةٌ بِيْنَ قُضْبَانِ سِيَاجٍ يَطُوفُ مَعِي، فَقَادَتْنِي نَحْو وَجْهٍ غَرِيبِ الحُسْنِ أُسْطُورِيّ المَلَامِحِ يُطِلُّ مِنْ غُرْفَةٍ يُرَاوِدُهَا الخَيَالُ، حَتَّى إِذَا مَا طَافَ فِي شُرْفَةِ الكَلِمَاتِ تَوَالَتْ عَلَيْهِ العَصَافِيرُ تُصْغِي إِلَيْهِ، كَانَتْ صَاحِبَةُ الوَجْهِ تَشْرُدُ فِي كِتَابِهَا كَمَا يُفَتِّشُ السَّاحِرُ فِي بِلَّوْرَتِهِ عَمَّا يَخْتَفِي وَرَاءَ الوُجُودِ، كَانَ إِيقَاعُ خُطْوَتِهَا سِمْفُونِيَّةً تَمْضِي بِي إِلَى مُدُنِ الأَحْلَامِ النَائِيَةِ، وفِي هَمْهَمَتِهَا قِيثَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ مَا إِنْ يَلْمِسُ لَحْنُهَا القَلْبُ حَتَّى يَخْلَعَ عَنْهُ قُيُودَ التَّعَبِ ويَضَعَ الشَّرُّ أَوْزَارَهُ، وحِينَ الْتَفَتَتْ إِلَيَّ بِوَدَاعَةِ طِفْلَةٍ نَمَتَ أَجْنَحَةٌ عَلَى كَتِفَيَّ، فَلَمَّا قَبَّلَتْ بَسْمَتُهَا الخَجُولَةُ عَيْنَيَّ تَسَلَّقَتُ السِّيَاجَ أَطِيرُ إِلَيْهَا نَاسِيَا مَنْ أَنَا ومَاحِيًا كُلَّ المَتَارِيسِ الَّتِي لَمْ يَضَعْهَا (اللهُ) –جَلّ وعَلَا- بَيْنَ الإِنْسَانِ والإِنْسَانِ!

الوَهْمُ يَمْلَؤُنِي ويُصِرُّ بَأَنَّهَا كَانَتْ تُنَادِيكَ تَعَالَ إِلَيَّ، حَتَّى انْتَشَلَتْنِي حَقِيقَةُ الوَاقِعِ البَغِيضِ مِنْ ذَاكَ الفِرْدَوْسِ لِتَزُجَّ بِي فِي هَذَا الجَحِيمِ، كَمَّاشَةُ الجُنُودِ تُطْبَقُ عَلَيَّ، انْتَظِرُواْ لَقَدْ نَادَتْنِي صَدِّقُونِي قَدْ نَادَتْنِي، الظَّلَام يَلُفُّنِي مَا هَذَا؟ ما هَذَا؟ أفْلِتُونِي، ثُمَّ اسْتَيْقَظَتُ والرُّعْبُ سَيِّدُ المكَانِ، ولَمَّا سَمِعْتُهَا تَتَوَسَّلُ لِأَبِيهَا بَاكِيَةً كَي يُطْلِقُواْ سَرَاحَ الأَحْمَقِ الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يَمُدَّ لَهَا جُسُورَ الغَزَلِ كَانَ الفَرَحُ يُضَمِّدُ جِرَاحِي وكَأَنِّي قَدْ تَنَاوَلْتُ إِكْسِيرَ الحَيَاةِ، قَالَ أَبُوهَا عَلَى مَضَضٍ: "دَعُوهُ وحَذَارِ أَنْ تُكَرِّرَ فِعْلَتَكَ الشَّنْعَاءَ مَرَّةً ثَانِيَةً ولَا تَنسَ مَنْ أَنتَ!".

فتَوَقَّفَ السَّجَّانُ والسِّيَاطُ يَكْبَحُ بِالكَادِ نَفْسَهُ، لَكِنَّنِي لَمْ أَكُنْ أُفكِّرُ إِلَّا فِي الَّتِي قَايَضَتْ بَدَمْعِهَا كَيْلَا أَغْرَقَ فِي بَحْرِ العَذَابِ؛ فَحَمَلَنِي الحُرَّاسُ وأَنَا أَلْمَحُ فِي عَيْنَيهَا المُغْرَوْرِقَتَيْنِ بالنَّدمِ والأَحْزَانِ نَظْرَةً تَقُولُ: "لَا تَحْزَنْ، يَا لَيْتَنِي مَنْ بَاءَتْ بِمَا تَحَمَّلْتَ!".

وكَمْ كُنْتُ أتَمَنَّى لَو أَبْطَأَ الحُرَّاسُ كَيْلَا تَغِيبَ صُوْرَتُهَا حَتّى تَنَامَ فِي عِينَيَّ، وحَينَ لَفَظَونِي أَمَامَ البَوَّابَةِ خَارِجًا كَمَا تُرْمَى القِمَامَةُ إِلَى سَلَّةِ المُهْمَلَاتِ هَمَسْتُ فِي نَفْسِي: "رُبَّمَا فَقَدْتُ الكَثِيرَ مِنِّي ولَكِنْ رَبِحْتُ الأَكْثَرَ الَّذِي لَمْ يَخْطُرْ لِي بِبَالٍ!".